الرحمة النبوية
صور مضيئة ونماذج مشرقة

الدكتور رشيد كُهُوس
جامعة عبد المالك السعدي/ المغرب

The Prophetic Mercy
Shining Images

Dr. Rasheed Kuhoos / University of Abdul Malik Al-Sa'di / Morocco

Abstract

The Islamic nation is need today to study the prophet's biography and to learn lessons from his deeds to establish a method to education the individuals and reform the society.

المقدمة

إن أمتنا المسلمة اليوم في أمس الحاجة لدراسة السيرة النبوية والنهل من ينابيعها، والسير على منهاجها، والتمسك بمبادئها الرفيعة، وجعلها منطلقا لتربية الفرد وإصلاح المجتمع. والبشرية اليوم في أمس الحاجة إلى الأخلاق المحمدية والقيم النبيلة، وهي حائرةٌ في متاهات المادية، وجحيم الحروب، وجفاء الأرواح والقلوب. والأخلاق هي روافدُ نهر الإيمان، بها يكتمل، وبها يكون المسلمون خير أمة أخرجت للناس. ولقد ربى النبي ﷺ صحابته على الأخلاق العالية، فكانوا رحماء بينهم، شيمتهم العفو والسماحة، والرفقُ والرحمة، وحبّ الخير لخلق الله جميعا. والأخلاق هي جوهر رسالات السماء على الإطلاق؛ بل إن الهدف الأساس من كلِّ رسالات السماء هدف أخلاقي. وبقاء الأمم واستمرارها مرتبط بأخلاقها، إن صلحت بقيت وعزت واستمرت، وإن فسدت فنيت وذلت وذهبت، وإن من أهم مقاصد البعثة النبوية: إتمامُ صَالحِ الأخلاق ومكارمها وبناء صرحها ودعامتها، وإشاعةُ روحها في نفوس الأفراد والأسر والمجتمعات، والعملُ على تقويمها «**إنما بُعِثت لأتمّم صالح الأخلاق**»[1].

إن الفلسفة التي تقوم عليها مكارم الأخلاق كما كان يهدف إليها سيدنا رسول الله ﷺ تتمثل في أنها أقصر الطرق للدخول إلى قلوب الآخرين، وأقوى الأساليب لفتح القلوب المستعصية، ولرب موقف أخلاقي بسيط يستطيع أن يصنع ما يعجز عنه أيّ موقف آخر غير منبعث عن المشاعر الخلقية الإنسانية، وإن كان قويا وذا شأن. وتعتبر السيرة النبوية العطرة المصدر الأساس والمنبع الأصيل لهذه القيم النبيلة والأخلاق السامية، ولذلك سأركز على جانب خلق من أخلاقه ﷺ، ألا وهو خلق الرحمة الذي يمثل القاعدة الراسخة لسلوكه وتعامله ﷺ مع الناس جميعا، لقوله ﷺ: «**إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً**»[2].

وسأتحدث في هذه المشاكرة المركزة عن رحمته ﷺ بالمخطئين، مقسما إياها إلى عنصرين: خصصت الأول للحديث عن فلسفة الرحمة في الإسلام، وخصصت الثاني لإبراز نماذج من رحمته ﷺ بالمخطئين، ثم ختمته بخلاصة عنوتها بـ:المستفاد من هذا الخلق والدعوة إلى التأسي به ﷺ في رحمته بالمخطئين خاصة وبالناس جميعا عامة.

أولا–فلسفة الرحمة في الإسلام:

تعتبر الرحمة العمود الفقري في منظومة الأخلاق المحمدية التي تقوم عليها مجمل تصرفاته ﷺ الخُلقية. وهذه المنظومة قررتها الآيات القرآنية، والسنة النبوية، كما أن لها فلسفة تقوم عليها باعتبارها منهاج حياة.. فلا عجب إذا كانت رسالته ﷺ رحمة للعالمين، وكانت تعاليم هذه الرسالة ينبوعا جيّاشا بكل ما تحتاج إليه الإنسانية من حب ورفق ومودّة. وقد أمر الإسلام بالتراحم العام، وجعله دلالةَ الإيمان الكامل، واليقين الصادق، فالمسلم يلقى الناس كلّهم، وفي قلبه عطف كامن وبر خالص، فمن لا يرحم الناس لا يرحمه الله.

(1) مسند أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط1: 1421هـ /2001 م. 513/14، قال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح.

(2) صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت. كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب، ح2599.

إن مواطن الرحمة قد اجتمعت كلّها في شخصه الكريم ﷺ، فقد رحم اليتامى، والأرامل، والأطفال، وأحسن في معاملة الأشخاص الذين يعاملهم، فكان بذلك وبفضل هذا الخلق جامعا لكل خلق كريم نتيجة الرحمة التي كانت تملأ قلبه، حتى قال الله تعالى في حقه: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[القلم: 4]. أي "قد برأك الله على الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم والرحمة وكل خلق كريم"[1].

وقال جل وعلا: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء: 107]. "إن محمدا– صلى الله عليه وسلم– إنما أرسل رحمة للعالمين. من آمن به ومن لم يؤمن به على السواء. فالبشرية كلها قد تأثرت بالمنهج الذي جاء به طائعة أو كارهة، شاعرة أو غير شاعرة وما تزال ظلال هذه الرحمة وارفة، لمن يريد أن يستظل بها، ويستروح فيها نسائم السماء الرخية، في هجير الأرض المحرق وبخاصة في هذه الأيام.

وإن البشرية اليوم لفي أشد الحاجة إلى حس هذه الرحمة ونداها. وهي قلقة حائرة، شاردة في متاهات المادية، وجحيم الحروب، وجفاف الأرواح والقلوب.." [2].

يقول الإمام أبو زهرة في تفسيره للآية السابقة: "أي أن رسالة محمد – صلى الله عليه وسلم – مقصورة على أن تكون رحمة للعالمين، أي لكل العقلاء، ورحمته – صلى الله عليه وسلم – في أنه بعث على فترة من الرسل؛ لإنقاذ الناس من الأوهام التي أركسوا فيها، وصاروا بها في عمياء ضاربة عليهم لَا يدركون معها حقا من باطل، وأنهم كانوا يتسافكون الدماء، وقد أكلت العداوة كل معاني الخير في فطرهم، واشتفت كل ينابيع المودة في صدورهم، وكان –صلى الله عليه وآله سلم– رحمة بشريعته التي دونت في القرآن وبينتها السنة النبوية المطهرة، بلسانه وعمله وإقراره حتى ترك الناس على المحجة البيضاء التي ليلها كنهارها"[3].

وبناء ما سبق فإن العاطفة الحيّة النابضة بالحب والرأفة هي التي تنطلق منها تصرفات رسول الله ﷺ وأفعاله، وهو منزّه عن كل اتهام بالفظاظة وغلظة القلب، وذلك لما للفظاظة والغلظة من ارتكاس بالفطرة إلى منزلة البهائم، وهو ما تنزّه عنه الحبيب المصطفى ﷺ. لكونه الرّحمة الكبرى للعالم.

إن الفلسفة التي يقوم عليها مفهوم الرحمة في الإسلام كما برزت في شخص سيدنا رسول الله ﷺ تتمثل في أنها شعار يحفظ للروح تفاعلها الدائم مع الآلام التي يعانيها الناس من خلال الأزمات الكثيرة، والمصائب الشديدة؛ وذلك كي يبقى الإنسان على صلة بالعنصر الإنساني في داخله، فتوقظ فيه الرحمة الوجدانيةُ التي تنساب منها الرحمةُ العملية بالتعاون والتعاطف والمشاركة في كل الهموم والآلام الإنسانية؛ وذلك لتخفيفها أو إزالتها نهائيا من حياتهم جميعا. والرحمة وصف تكرر ذكره في القرآن الكريم لأكثر من ثلاثمائة مرة، وفي ذلك حض المُخاطَبين واللاحقين أولي الألباب على التحلي بالرحمة والمبادَرة بها.

وهذه جملةٌ من الأحاديث الشريفة تحض على حسن الخلق عامة وخلق الرحمة خاصة وتبين فضائلها الجليلة، وثمراتها العاجلة والآجلة: عن أبي الدرداء ﷺ قال : سمعت النبي ﷺ يقول: «**مَا مِنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ، وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ** الْخُلُقِ **لَيَبْلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِبِ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ**»[4]. وفي رواية: «**وَإِنَّ اللَّهَ لَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ**»[5].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال: «**تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ، وَسُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ** النَّاسَ **النَّارَ، فَقَالَ: الْفَمُ وَالْفَرْجُ**»[6].

وعن جابر ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: « **إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيْهِقُونَ**، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ؟ **قَالَ: الْمُتَكَبِّرُونَ**»[1]. والثرثار هو الكثير الكلام، والمتشدق: الذي يتطاول على الناس في الكلام ويبذو عليهم.

(1) تفسير المراغين أحمد بن مصطفى المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، ط1: 1365 هـ/ 1946 م، 28/29.
(2) في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي، دار الشروق - بيروت- القاهرة، ط17: 1412هـ، 2402/4.
(3) زهرة التفاسير، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة، دار الفكر العربي 4928/9.
(4) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، باب حسن الخلق، ح2003، حديث صحيح.
(5) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق، ح2002. قال الترمذي: حديث صحيح.
(6) سنن الترمذي، باب ما جاء في حسن الخلق، ح2004، حديث حسن.

أما في خلق الرحمة فقد روى أبو هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**لا تُنْزَعُ الرَّحمَةُ إلا من شَقِيٍّ**»[2].

وفي حديث المسلسل بالأولية عن عبد الله بن عمرو ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهمُ الرَّحمنُ، ارحَمُوا أهلَ الأرضِ يَرْحَمْكُم مَن في السّماء**»[3]... "إنّه ﷺ جعل الرحمة على بني آدم الشرط اللازم لجلب رحمة الله"[4].

وعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لاَ يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ لاَ يَرْحَمُ النَّاسَ**»[5].

وفي حديث أسامة بن زيد –رضي الله عنهما–: «...وَإِنَّمَا **يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ**»[6].

قال العلامة ابن بطال –رحمه الله–: "في هذه الأحاديث الحض على استعمال الرَّحْمَة للخلق كلهم، كافرهم، ومؤمنهم، ولجميع البهائم والرفق بها، وأن ذلك مما يَغفر الله به الذنوب، ويُكفِّر به الخطايا، فينبغي لكل مؤمن عاقل أن يرغب في الأخذ بحظه من الرَّحْمَة، ويستعملها في أبناء جنسه وفى كل حيوان"[7]. وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي –رحمه الله–: "رحمة العبد للخلق من أكبر الأسباب التي تنال بها رحمة الله، التي من آثارها خيرات الدنيا، وخيرات الآخرة، وفقدها من أكبر القواطع والموانع لرحمة الله، والعبد في غاية الضرورة والافتقار إلى رحمة الله، لا يستغني عنها طرفة عين، وكل ما هو فيه من النِّعم واندفاع النقم، من رحمة الله.

فمتى أراد أن يستبقيها ويستزيد منها، فليعمل جميع الأسباب التي تنال بها رحمته، وتجتمع كلها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: 56]، وهم المحسنون في عبادة الله، المحسنون إلى عباد الله. والإحسان إلى الخلق أثر من آثار رحمة العبد بهم"[8]. وغاية المرام: إن المستقرئ لما ورد في القرآن الكريم من آيات تحكي كون سيدنا رسول الله ﷺ رحمة للعالمين يتضح له جليا أن جميع ما جاءت به الرسالة المحمدية، وجميع ما اشتملت عليه من عبادات ومعاملات، وآداب وأخلاق، وحقوق وواجبات كان مبنيا على أساس الرحمة بالعباد.

لقد كانت مساحة الرحمة في رسالته ﷺ متسعة لتشمل الإنس والجن بجميع طبقاتهم، بل شملت حتى الحيوان: فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ ﷺ، قَالَ: رَكِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَغْلَتَهُ، وَأَرْدَفَنِي خَلْفَهُ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا تَبَرَّزَ كَانَ أَحَبَّ مَا تَبَرَّزَ فِيهِ هَدَفٌ[9] يَسْتَتِرُ بِهِ، أَوْ حَائِشُ[10] نَخْلٍ، فَدَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَإِذَا فِيهِ نَاضِحٌ[11] لَهُ. فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ، حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ[12] وَسَرَاتَهُ[13]، فَسَكَنَ فَقَالَ: «**مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ؟**» فَجَاءَ شَابٌّ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: أَنَا، فَقَالَ: «**أَلا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا، فَإِنَّهُ شَكَاكَ إِلَيَّ وَزَعَمَ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ**[1]»[2].

---

(1) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، باب معالي الأخلاق، ح2004. حديث صحيح.
(2) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب الرحمة، ح4942، حديث حسن. مسند أحمد بن حنبل، 539/2.
(3) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب الرحمة، ح4941، حديث صحيح. سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، باب: رحمة المسلمين، ح1924.
(4) السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي، علي أبو الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين الندوي، دار ابن كثير – دمشق، ط12: 1425 1425هـ، ص629.
(5) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تبارك وتعالى: {قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى} [الإسراء: 110]، ح6941.
(6) المصدر نفسه، ح6942.
(7) شرح صحيح البخاري، ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد - السعودية، الرياض، ط2: 1423هـ - 2003م، 219/9.
(8) بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار، أبو عبد الله بن ناصر آل سعدي، تحقيق: عبد الكريم ال الدريني، مكتبة الرشد، ط1: 1422هـ - 2002م ،ص188.
(9) "الهدف": كل شَيْء عَظِيم مُرْتَفع. غريب الحديث، أبو عُبيد القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي، تحقيق: محمد عبد المعيد خان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد- الدكن، ط1: 1384 هـ - 1964م، ص77.
(10) حائش النخل: قال الخطابي: الحائش: جماعة النخل الصغار لا واحد له من لفظه، وقال ابن الأثير: الحائش: النخل الملتف المجتمع، كأنه لالتفافه يحوش بعضه إلى بعض. غريب الحديث، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، وخرج أحاديثه: عبد القيوم عبد النبي، دار الفكر، ط: 1402هـ - 1982م، 75/1. النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير ، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية - بيروت، 1399هـ - 1979م، 468/1.
(11) ناضح: وَهُوَ الْبَعِير الَّذِي يُستقى عَلَيْهِ. الفائق في غريب الحديث والأثر، أبو القاسم جار الله محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، تحقيق: علي محمد البجاوي -محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة – لبنان، ط2، 383/2.
(12) ذفراه: أي مؤخر رأسه، وهو الموضع الذي يَعْرَقُ من البعير خلف الأذن. ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، ط4: 1407هـ - 1987م، 663/2.
(13) سراته: أي ظهره وأعلاه. ينظر: غريب الحديث، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق: عبد الله الجبوري، مطبعة العاني – بغداد، ط1:

إنها صِبغةُ الإسلام ومنهاج خير الأنام ﷺ؛ حيث سجَّلَ التاريخ لنا مشاهد رائعة من هذه الرحمة الندية، قاد المسلمون من خلالها العالم إلى المحبة والوئام، وحققوا السعادة والسلام، وأناروا حياتهم بمآثر الإحسان.

ثانيا- نماذج من مظاهر رحمته ﷺ بالمخطئين:

لقد من الله تبارك وتعالى على نبيّه وخلاصة أصفيائه سيدنا محمد ﷺ بمكارم الأخلاق كلها؛ فإنه لا يُحصى من دخل في الإسلام بسبب خُلُقه الكريم ﷺ سواء أكان الخُلُق من جوده، أم كرمه، أم عفوه، أم صفحه، أم حلمه، أم تؤدته، أم تواضعه، أم عدله، أم رحمته... أم غير ذلك من مكارم الأخلاق...

ومن تتبع سيرته العطرة وأيامه الخالدة وجد أنه كان يلازم الأخلاق الحسنة في سائر أحواله، فأقبل الناس ودخلوا في دين الله أفواجا، بفضل الله ثم بفضل حسن خلقه.

إن خلق الرحمة في حياة سيدنا رسول الله ﷺ خلق قد تفرعت منه معظم الأخلاق بعد ذلك، فهو ﷺ لم يعفو ويسامح إلا لأنه رحيم، ولم يكن لينا حليما إلا لأنه رحيم، ولم يكن متواضعا خافضا الجناح للمؤمنين إلا لأن الكبر يولّد في القلب القسوة وهكذا. فجميع الأخلاق النبوية التي تشكّلت في هذه المنظومة القيمية والخُلقية قد انبثقت من خلق الرحمة الذي تميز به سيدنا محمد ﷺ في شخصه العظيم، كما أنه استطاع ﷺ أن يجعل هذا الخلق سبيلا لنشر رسالة الإسلام في العالمين.

ولهذا وصف الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ بوصف لم يصف به غيره "ونوه سبحانه بما جبل نبيه عليه ﷺ من الرحمة والرأفة بالمؤمنين والحرص على ما ينفعهم في دينهم وأخراهم، والتألم من كل ما يشق عليهم"[3] بقوله سبحانه ممتنا على المؤمنين بإرساله فقال جل جلاله: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾[التوبة: 128].

"وهو الذى ينبع معين الرحمة من بين جنبيه"[4].. ومن ثم انتشرت الرحمة لديه ﷺ حتى غطى دفؤها كلّ مقرور. وحتى شملت الأحياء جميعا من إنسان وحيوان.. وفي المواطن التي تشتد فيها الحاجة إليها، نجده يركز على إلحاحه عليها.. وهكذا يدور قلبه الكبير مع دواعي الرحمة حيث تدور..

والرحمة عنده ﷺ ليست نافلةً من نوافل البر، بل واجبا من واجبات الرشد؛ وتبعة من تبعات الحياة.

قال العلامة أبو بكر محمد بن الطاهر القيسي الإشبيلي-رحمه الله-: "زيَّن الله محمدا بزينة الرحمة؛ فكان كونُهُ رحمةً، وجميع شمائله رحمةً وصفاته رحمةً على الخلق"[5].

لقد تجلى خلق الرحمة في النبي ﷺ واستعمل هذا الخلق كإسير شاف لفتح القلوب والتربع على عروشها. ذلك لأن خلق الشفقة والرحمة واللين في الإنسان هو العامل في جذب الناس وفتح قلوبها بعد صفة الإخلاص والتجرد الحقيقي. لقد كانت رقة وجمال العالم الداخلي لرسول الله ورحمته وشفقته من عوامل نجاح دعوته ومن دلائل نبوته ﷺ.

لقد أرسله الله تعالى رحمة للعالمين، وكان مرآة مجلوة تعكس رحمة الله تعالى.. ونبع كوثر وسط الصحارى تقاطر عليه الجميع وفي يد كل منهم وعاؤه يشرب حتى يطفئ ظمأه ويروي غلته ويملأ وعاءه..

غير أنه جعل الرحمة الموجودة في فطرته شباك لصيد القلوب، فمن وجد نفسه في ذلك الجو الساحر وجد نفسه في طريق الجنة وفي قمة الوجد.. هكذا كانت الرحمة في يد رسول الله ﷺ مفتاحا سحريا فتح به مغاليق القلوب..

1397، 437/1.

(1) تدئبه: أي: تكده وتتعبه، من الدأب، وهو الجد والتعب. النهاية، لابن الأثير، 95/2.

(2) سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب ما يؤمَر به من القيام على الدوابِّ والبهائم، ح2549. مسند أحمد بن حنبل، 274/3. إسناده صحيح.

(3) من أخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، عبد المحسن بن حمد البدر، دار ابن خزيمة، ط1: 1420هـ/2000م، ص52.

(4) خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة، دار الفكر العربي – القاهرة، 1425 هـ، 76/1.

(5) الشفا بتعريف حقوق المصطفى - مذيلا بالحاشية المسماة مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء، أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي، الحاشية: أحمد بن محمد بن محمد الشمنى (المتوفى: 873هـ)، دار الفكر، 1409 هـ/ 1988م، 16/1.

إن الرحمة الواسعة لرسول الله ﷺ التي ضمت الوجود كله بإخلاص وجدت طريقها إلى التطبيق. لأنها كانت معنى منبعثا بكل تجرد وإخلاص من قلب الوجود كله..

لقد جاء رسول الله ﷺ ليبلغ رسالة الرحمة هذه، فقد كان المنهلَ العذب المورود، فمن جاءه وجد الرحمة عنده، ومن شرب ماء الحياة من يده فقد حصل ووصل إلى الخلود المعنوي.. (1).

وهذه نماذج من رحمته بالمخطئين:

إن من رحمته ﷺ بالمخطئين قصَّةُ الشَّابِّ الذي جاء إليه ﷺ –فيما رواه عنه أبو أمامة الباهلي– فقال: ائذن لي بالزِّنا. فأقبل القومُ عليه فزَجروه وقالوا: مه، مه. فقال: «**ادنه**». فدنا منه قريبًا؛ قال: فجلس، قال: «**أَفَتُحبُّه لأمك؟**» قال: لا والله– جعلني الله فداءك. قال: «**ولا الناس يحبُّونه لأمَّهاتهم**»، قال: «**أفتحبُّه لأختك؟**» قال: لا والله– جعلني الله فداءك. قال: «**ولا الناس يحبُّونه لأخواتهم**». قال: «**أفتحبُّه لعمَّتك؟**» قال: لا والله– جعلني الله فداءك. قال: «**ولا الناس يحبونه لعماتهم**». قال: «**أفتحبه لخالتك؟**» قال: لا والله– جعلني الله فداءك. قال: «**ولا النَّاس يحبُّونه لخالاتهم**». قال: فوضع يده عليه، وقال: «**اللهم اغفر ذنبَه وطهِّر قلبَه وحصِّن فرجَه**». فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء(2).

فقد ناقش النَّبيُّ ﷺ هذا الشَّابَّ مناقشةً عقليَّةً منطقيَّةً أحسن التَّصَرُّفَ معه ولم يزجره وينهره رغم الجرأة وسوء الأدب في طلبه، وتدرَّجَ معه في الخطاب حتى اقتنع وتبيَّن له خطؤه في هذا الطَّلب.. فقال: «يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُطَهِّرَ قَلْبِي..» (3).

فوضع الحبيب المصطفى والنبي المجتبى ﷺ كفه الحانية على صدره ودعا له..

أجل كل عدوان عليك أو على أحد ممن معك لا ترضاه لنفسك ولا ترضاه لهم. وجب عليك أن تتجنب إيقاعه بغيرك وهذا هو الميزان والمعيار..

ومن ثم فإن "هذا الموقف العظيم مما يؤكد على الدعاة إلى الله – عز وجل – أن يعتنوا بالرفق والإحسان إلى الناس، ولاسيما من يُرغَبُ في استئلافهم ليدخلوا في الإسلام، أو ليزيد إيمانهم ويثبتوا على إسلامهم"(4).

وكما يبين لنا الرسول صلى الله عليه وسلم الرِّفق بفعله بينه لنا بقوله وأمرنا بالرفق في الأمر كله.

ثم من رحمته ﷺ وشفقته ولينه وعطفه وحنانه، شهادة خادمه أنس ﷺ، وإن شهادة الخادم لصادقة، وخاصة أنس الذي خدمه تسع سنين، وكان معه كظله، في سائر أحواله، في حضره وسفره وصحته ومرضه وشبعه وجوعه، وبتقلب الأحوال تختبر أخلاق الرجال، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ أَحْسَنَ النّاسِ خُلُقاً. فَأَرْسَلَنِي يَوْماً لِحَاجَةٍ. فَقُلْتُ: وَاللّهِ لاَ أَذْهَبُ، وَفِي نَفْسِي أَنْ أَذْهَبَ لِمَا أَمَرَنِي بِهِ نَبِيّ اللّهِ ﷺ، فَخَرَجْتُ حَتّىَ أَمُرّ عَلَىَ صِبْيَانٍ وَهُمْ يَلْعَبُونَ فِي السّوقِ، فَإِذَا رَسُولُ اللّهِ ﷺ قَدْ قَبَضَ بِقَفَايَ مِنْ وَرَائِي، قَالَ: فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقَالَ: «**يَا أُنَيْسُ أَذَهَبْتَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ؟**» قُلْتُ: نَعَمْ، أَنَا أَذْهَبُ، يَا رَسُولَ اللّهِ. قَالَ أَنَسٌ: وَاللّهِ لَقَدْ خَدَمْتُهُ تِسْعَ سِنِينَ، مَا عَلِمْتُهُ قَالَ لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ: لِمَ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ أَوْ لِشَيْءٍ تَرَكْتُهُ: هَلاّ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا»(5).

لقد ضحك ﷺ، وأدرك أن خادمه طفل يعرض له ما يعرض لأمثاله من حب اللعب والتشاغل به، فنبهه على تقصيره بيد حانية أمسكتْ بقفاه، وشفعها بابتسامة حانية، تجدد الحب وتلتمس المعاذير.

وأما صيغة النداء مع هذا الصبي المتشاغل باللعب، المتلكئ عن المبادرة والمسارعة لتنفيذ أمر النبي ﷺ، فهي درس آخر من دروس التربية والتوجيه، فقد قال له ﷺ متحبباً: «يا أُنيس»، وتصغير الاسم ضرب من ضروب التحبب والتألف والتودد، وهو خير من

(1) النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية، دار النيل، القاهرة، ط7: 1433هـ/2012م، ص247.
(2) أخرجه الإمام أحمد في مسنده 5/ 256. قال شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح.
(3) مسند الشاميين، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، 139/2.
(4) رَحمةٌ للعَالمِين ، سعيد بن على بن وهف القحطانين مطبعة سفير، الرياض، توزيع: مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، الرياض، ص182.
(5) صحيح مسلم، كتاب فضائل النبي ﷺ، باب حسن خلقه ﷺ، ح2310.

قواميس الكلمات النابية التي ننشرها في وجوه أبنائنا وخدمنا وغيرهم ممن يخطئون علينا أو يتلكؤون في تنفيذ أوامرنا التي نظن أنها لا تقبل التلكؤ والتأخير[1].

وعن أم المؤمنين عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، أنها قَالَتْ: لِلنَّبِيِّ ﷺ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قَالَ: **«لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ العَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ، ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»**[2].

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني –رحمه الله–: "وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ بَيَانُ شَفَقَةِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى قَوْمِهِ وَمَزِيدِ صَبْرِهِ وَحِلْمِهِ"[3] ورحمته بهم. وكانت رحمته وشفقته العظيمة هي التي تغلب في المواقف العصيبة التي تبلغ فيها المعاناة أشد مراحلها، وتضغط بعنف على النفس لتشتد وتقسو، وعلى الصدر ليضيق ويتبرم، ومع ذلك تبقى نفسه الكبيرة ورحمته العظيمة هي الغالبة[4].

ومن رحمته ﷺ قصَّةُ الأعرابيّ الذي جذب بردائه ﷺ حتى أثرت حاشية الرِّداء في صفحة عاتقه ﷺ طالبًا منه أن يعطيَه من مال الله؛ فكان ردُّ رسول الله ﷺ أن نظر إليه بكلِّ هدوء، ثم تبسَّم في وجهه وأمر له بعطاء: فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَذَبَهُ جَذْبَةً شَدِيدَةً، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ أَثَّرَتْ بِهِ حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَذْبَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ، ثُمَّ «أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ»[5].

إن الطمأنينة التي دفعت الأعرابي إلى هذا الموقف المسرف في الجرأة.. هذه الطمأنينة وجدها تصور رحمة سيدنا رسول الله محمد ﷺ وعدله أصدق تصوير..

فما كان الأعرابي قادرا على أن يقول مقالته تلك لو كان سيدنا محمد –صلى الله عليه وآله وسلم– قد أقام بينه وبين الناس سورا من التعاظم والكبرياء، وبث في نفوسهم الخشية والرهبوت..

ورحمة سيدنا رسول الله ﷺ بهذا الأعرابي عجيبة؛ فهذا الجفاء وهذه الغلظة كانت تستوجب في أعرافنا ردَّ فعل أغلظ من فعله ليردعه وأمثاله عن التعدي على سيد الخلق ﷺ، وخاصة أنه يمثل الدولة الإسلامية بصفته قائدها وزعيمها.. وكان مقتضى الرحمة عند الكثيرين هو مجرد العفو والصفح، أما أن يأمر له بعطاء –دون عقاب– فهذا قمة الرحمة وذروتها..

ومن رحمته ﷺ ما ذكره مُعَاوِيَة بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ في قصته قال: بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللهُ فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ، مَا شَأْنُكُمْ؟ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ، فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لَكِنِّي سَكَتُّ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللهِ، مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي، قَالَ: **«إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ»**[6].

---

(1) الدين المعاملة، منقذ بن محمود السقار، رابطة العالم الإسلامي - سلسة دعوة الحق (كتاب شهري محكم) - السنة 24، العدد 237، عام 1430هـ /2009 م، ص75.

(2) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء، آمين فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه، ح3059.

(3) فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، دار المعرفة - بيروت، 1379، 316/6.

(4) السِّيرةُ النّبوية - عرضُ وقائع وَتحليل أحدَاث، عَلي محمد محمد الصَّلَّابي، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط7: 1429هـ/ 2008 م، ص214.

(5) صحيح البخاري، كتاب فرض الخمس، بَابُ مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعْطِي المُؤَلَّفَة قُلُوبُهُمْ وَغَيْرَهُمْ مِنَ الخُمُس وَنَحْوِهِ، ح2980. صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء من سأل بفحش وغلظة، ح1057.

(6) صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحة، ح537. مسند أحمد بن حنبل، 447/5-448.

في هذا الموقف نرى بوضوح رحمة سيدنا رسول الله ﷺ بمعاوية بن الحكم ﷺ، حيث تكلَّم في الصَّلاة وهو لا يعرف حكم ذلك، فعلَّمه رسولُ الله ﷺ من غير نهر له ولا تشديد عليه، وكان يتوقع الزجر والتعنيف من سيدنا رسول الله ﷺ لما رأى ثورة المصلين حوله، ومحاولتهم إسكاته، لكن سيدنا رسول الله لا يصدر منه القول السيئ ولا يقسو على أحد أبدا.

وهذا أعرابي يقول: اللهم ارحمني ومحمدا ولا ترحم معنا أحدا؛ لأنه تأثر برحمة النبي ﷺ وعفوه عنه، ولم يتركه رسول الله ﷺ على تحجيره رحمة الله التي وسعت كل شيء؛ بل قال ناصحا له ومعلما: «**لقد حجرت واسعا**»[1].

ومن رحمته ﷺ بالمخطئين المذنبين رحمته بماعز بن مالك: عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: جَاءَ مَاعِزُ بْنُ مَالِكٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، طَهِّرْنِي، فَقَالَ: «**وَيْحَكَ، ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ اللهَ وَتُبْ إِلَيْهِ**»، قَالَ: فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، طَهِّرْنِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَيْحَكَ، ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ اللهَ وَتُبْ إِلَيْهِ**»، قَالَ: فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، طَهِّرْنِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مِثْلَ ذَلِكَ حَتَّى إِذَا كَانَتِ الرَّابِعَةُ، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ: «**فِيمَ أُطَهِّرُكَ؟**» فَقَالَ: مِنَ الزِّنَى، فَسَأَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَبِهِ جُنُونٌ؟**» فَأُخْبِرَ أَنَّهُ لَيْسَ بِمَجْنُونٍ، فَقَالَ: «**أَشَرِبَ خَمْرًا؟**» فَقَامَ رَجُلٌ فَاسْتَنْكَهَهُ، فَلَمْ يَجِدْ مِنْهُ رِيحَ خَمْرٍ، قَالَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَزَنَيْتَ؟**» فَقَالَ: نَعَمْ....[2].

إنا نرى هنا موقفا من أعظم مواقف رحمة حبيبنا رسول الله ﷺ بالمذنبين المخطئين، مع أنه موقف إقامة الحد على ماعز، وهو أمر شديد ولا شك..

إن ماعزا جاء ليعترف بالزنى ليقام عليه الحد، جاء معترفا دون أن يكرهه أحد، لقد جاء تائبا مقرا بذنبه، يريد أن يتخلص منه في الدنيا قبل حساب الآخرة، والحدود كفارة، وقد جاء إلى سيدنا رسول الله ﷺ قائلا له: ((طهرني))، وقد شعر رسول الله ﷺ من الوهلة الأولى أن الرجل أصاب ذنبا عظيما، فلا شك أن هذا باديا على قسمات وجهه، ونبرات صوته، لكنه مع ذلك لم يسأله ﷺ عن ذنبه، ولو من باب الفضول، وهذا من رحمته ﷺ العظيمة ﷺ، ولكن ماعزا كان مصرا على الاعتراف، وصرح في المرة الرابعة بذنبه، ومع ذلك لم يتلقف رسول الله ﷺ منه الاعتراف، كما يحدث في كثير من بلاد العالم ويسجله عليه، بل راجعه أكثر من مرة ليتراجع؛ وذلك رحمة به، فسأل عن عقله: هل به جنون؟ فقالوا: لا. فسأل عن شربه للخمر، فلعله قد أذهب عقله، فاعترف بما لم يفعل، وحد الخمر أهون من حد الزنى للمحصن، ولكن ماعزا لم يكن شاربا للخمر..

إنها محاولات حقيقية من مولانا رسول الله ﷺ لدرء الحد، والتجاوز عن ماعز، بل إنه ﷺ –في روايات أخرى –التفت إلى قوم ماعز وسألهم: «**أَتَعْلَمُونَ بِعَقْلِهِ بَأْسًا، تُنْكِرُونَ مِنْهُ شَيْئًا؟**» فَقَالُوا: مَا نَعْلَمُهُ إِلَّا وَفِيَّ الْعَقْلِ مِنْ صَالِحِينَا فِيمَا نُرَى[3].

وفي رواية أخرى حاول رسول الله ﷺ أن يجد له مخرجا حتى بعد اعترافه بالزنى، فقال رسول الله ﷺ له: «**لَعَلَّكَ قَبَّلْتَ، أَوْ غَمَزْتَ، أَوْ نَظَرْتَ**»[4].

إن رسول الله ﷺ قال في نفسه لعل ماعزا لم يزن حقيقة.. ومن هنا سأله تلك الأسئلة محاولا إخراجه من أزمة إقامة الحد عليه.. وأُقيم الحد على ماعز كما قضت الشريعة.. والشريعة رحمةٌ كلُّها، وليست الشريعة حدودا صارمة ولا قلب لها ولا عاطفة، ولكنها منظومة كاملة من القيم والأخلاق، وكما كان في هذه المنظومة إقامة الحدود للردع، كان فيها تربية الفرد على التقوى ومراقبة الله عز وجل، حتى يصل الأمر إلى أن يأتي الزاني المحصن ليعترف بجريمته، ويقام عليه الحد.

لقد قام رسول الله ﷺ عشية هذا الحدث الكبير خطيبا في الناس ليعلق أمام الجميع أن الحد قد أقيم رحمةً بالمجتمع، ورحمةً بالإنسانية، ولم يكن الغرض منه قسوة بإنسان، أو تشهير بذنبه..

(1) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ح5664.
(2) صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا، ح1695.
(3) صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا، ح1695.
(4) صحيح البخاري، كتاب المحاربين من أهل الردة والكفر، باب هل يقول الإمام للمقر: لعلك لمست أو غمزت، ح6438.

فقال ﷺ في خطبته: «**أَوَ كُلَّمَا انْطَلَقْنَا غُزَاةً فِي سَبِيلِ اللهِ تَخَلَّفَ رَجُلٌ فِي عِيَالِنَا، لَهُ نَبِيبٌ**[1] **كَنَبِيبِ التَّيْسِ، عَلَيَّ أَنْ لَا أُوتَى بِرَجُلٍ فَعَلَ ذَلِكَ إِلَّا نَكَّلْتُ بِهِ**»[2].

ثم دار الجدال بعد ذلك بين الناس في المدينة المنورة بعد إقامة الحد على ماعز: قال بريدة: فَكَانَ النَّاسُ فِيهِ فِرْقَتَيْنِ، قَائِلٌ يَقُولُ: لَقَدْ هَلَكَ، لَقَدْ أَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ، وَقَائِلٌ يَقُولُ: مَا تَوْبَةٌ أَفْضَلَ مِنْ تَوْبَةِ مَاعِزٍ أَنَّهُ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَوَضَعَ يَدَهُ فِي يَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: اقْتُلْنِي بِالْحِجَارَةِ، قَالَ: فَلَبِثُوا بِذَلِكَ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً، ثُمَّ جَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُمْ جُلُوسٌ، فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ، فَقَالَ: «**اسْتَغْفِرُوا لِمَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ**»، قَالَ: فَقَالُوا: غَفَرَ اللهُ لِمَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَقَدْ تَابَ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ أُمَّةٍ لَوَسِعَتْهُمْ**»[3].

ما أعظم رحمته ﷺ وأوسعها، إنه مع كراهيته الشديدة للفعل، ومع نهيه المستمر للناس أن يفعلوا مثلما فعل ماعز، ومع تحذيره من تكرار الأمر، مع ذلك لا يتردد أن يُعلن أمام الناس جميعا أن الله جل وعلا قد غفر لماعز خطيئته، ويطلب منهم أن يستغفروا لأخيهم.. إنه لا يحق للناس أن يخوضوا في عرضه طالما أن الحد قد أقيم عليه، وطالما أنه قد أعلن توبته أمام الجميع..

ومن رحمته ﷺ بالمخطئين: رحمته بحاطب بن أبي بلتعة ﷺ الذي أفشى سرا عسكريا خطيرا للدولة الإسلامية، كان من الممكن أن يكون له أشد الأثر على أمنها واستقرارها؛ لما أرسل رسالة إلى مشركي مكة يخبرهم فيها أن رسول الله ﷺ قد جهز جيشا لفتحها، مخالفا بذلك أوامر القائد الأعلى للمسلمين رسول الله ﷺ، ومُعرِّضا جيش المسلمين لخطر عظيم..

كيف يكون رد الفعل المناسب في أية دولة في العالم؟

إن القتل هنا عقاب مقبول جدا مهما كانت ملابسات الحدث.. وهذا ما رأينا بعض الصحابة ﷺ يقترحه..

لكن ماذا فعل سيدنا رسول الله ﷺ؟

إنه بعد أن أمسك بالخطاب الخطير، وعلم ما فيه، أرسل إلى حاطب، وسأله ﷺ في هدوء: «**يَا حَاطِبُ مَا هَذَا؟**»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لاَ تَعْجَلْ عَلَيَّ إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ، وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا، وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ المُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ، أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي، وَمَا فَعَلْتُ كُفْرًا وَلاَ ارْتِدَادًا، وَلاَ رِضًا بِالكُفْرِ بَعْدَ الإِسْلاَمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَقَدْ صَدَقَكُمْ**»، قَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا المُنَافِقِ، قَالَ ﷺ: «**إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»[4].

إن المبرر الذي ذكره حاطب لا يقبله الكثيرون، بل إن عمر بن الخطاب ﷺ –وكلنا يعلم ورعه وفطنته وعدله– لم يقبله، ورأى أن يقتل بهذا الجرم، فكيف يسوغ أن يحاول حماية أهله على حساب جيش كامل؟ ثم كيف يعصي أمرا مباشرا لرسول الله ﷺ؟

ومع كل هذا إلا أن سيدنا رسول الله ﷺ رحمه رحمةً واسعةً، وقبل منه عذره في صفح عجيب، وعذره، ولم يوجه له كلمة لوم أو عتاب، بل إنه رفع من قدره، بذكر فضائل أهل بدر.

إن العدل قد يقتضي أن يُعاقب حاطب بن أبي بلتعة بصورة أو أخرى، ولكن الرحمة تقتضي النظر إلى الأمر بصورة أشمل، فنرى من الذي فعل الفعل وتاريخه وسوابقه المماثلة وأعماله السالفة؟ وهل هو من أهل الخير أم من أهل الشر؟ وما الملابسات والخلفيات لهذا الحدث؟

إن الرحمة تقتضي عدم الانسياق وراء عاطفة العقاب، ولكن البحث الحثيث عن وسيلة تخرج صاحب الأزمة من أزمته..

العدل درجة عظيمة.. ولكن الرحمة أعظم.. الفرق بين الاثنين تلحظه في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾[النحل: 61].

(1) نبيب: صوت التيس عند الجماع. ينظر: لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن على ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى، دار صادر – بيروت، ط3: 1414هـ، مادة: نبب، 747/1.

(2) صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا، ح1694.

(3) صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا، ح1695.

(4) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الجاسوس، ح2845. صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب من فضائل أهل بدر ﷺ، ح2494.

من العدل أن يأخذ الله الناس بذنوبهم، ومن الرحمة أن يؤخرهم إلى أجل مسمى..

وقد تخلق النبي ﷺ بأخلاق القرآن، وكان هذا منهاجه في الحياة، دون إفراط أو تفريط..

ومن رحمته ﷺ رحمته بالأعرابي الذي أراد قتله: فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ، قَالَ: قَاتَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُحَارِبَ خَصَفَةَ[1] بِنَخْلٍ، فَرَأَوْا مِنَ الْمُسْلِمِينَ غِرَّةً، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالَ لَهُ: غَوْرَثُ بْنُ الْحَارِثِ، حَتَّى قَامَ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالسَّيْفِ، فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: «**اللهُ**»، فَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ، فَأَخَذَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟**» قَالَ: كُنْ كَخَيْرِ آخِذٍ، قَالَ ﷺ: «**أَتَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»، قَالَ: لَا، وَلَكِنِّي أُعَاهِدُكَ أَنْ لَا أُقَاتِلَكَ، وَلَا أَكُونَ مَعَ قَوْمٍ يُقَاتِلُونَكَ، فَخَلَّى سَبِيلَهُ، قَالَ: فَذَهَبَ إِلَى أَصْحَابِهِ، قَالَ: قَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ خَيْرِ النَّاسِ[2].

فهذا الرجل أمسك السيف، ووقف به على رأس سيدنا رسول الله ﷺ يتهدده بالقتل، ثم عصم الله نبيه منه ونجَّاه، وانقلبت الآية، فأصبح السيف في يد رسول الله ﷺ، ومع ذلك فالحقد والغلُّ لا يعرفان طريقهما إلى قلبه الزكي النقي ﷺ.. إنه يعرض عليه الإسلام، فيرفض الرجل، ولكن يعاهده على عدم قتاله، فيقبل منه رسول الله ﷺ بسهولة ويسر، ويرحمه، ويعفو عنه، ويطلقه آمنا إلى قومه.

ومن رحمته ﷺ رفقه بالمذنبين من أمته: فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن رجلا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان اسمه عبد الله، وكان يلقب حمارا، وكان يضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد جلده في الشراب، فأتي به يوما فأمر به فجلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**لا تلعنوه، فوالله ما علمت إنه يحب الله ورسوله**»[3].

"فهذا درس للدعاة في الترفق بالعصاة، فالعقوبة ليست لطرد العاصي من الصف بل لتطهيره من الذنب، والإسلام منهج تربية لا تعرية"[4].

ومن رحمته ﷺ بالمخطئين في حقه عفوه وصفحه عن أهل مكة الذين ناصبوه العداء، ولم يدعوا طريقا في سبيل إيذائه إلا وسلكوه..

فلننظر إلى يوم الفتح الأعظم لمكة المكرمة، الذي تحقق بعد صراع مرير مع الباطل، وبعد أن فعلت قريش برسول الله ﷺ وأصحابه ما فعلوا، وسلكت معكم كل طرق الإيذاء والتعذيب والتنكيل.. آذوه ﷺ وآذوا أصحابه وعذبوهم، وقاطعوه وعشيرته ومن آمن به في شعب مكة لثلاث سنوات، أكلوا خلالها العشب والجذور وأوراق الأشجار، حتى هلك منهم الأطفال والشيوخ من الجوع.. ولم يكتفوا بهذا بل اضطروهم لترك بيوتهم وأوطانهم والهجرة إلى أماكن أخرى بعيدة.. ولم يتركوهم في راحة هناك فبدسائسهم المختلفة سلبوا منهم الراحة والاطمئنان.. وحرموهم حتى من أبسط حقوقهم كزيارة الكعبة البيت الحرام..

لكن عندما انتصر عليهم ﷺ، وأحاط بهم إحاطةَ السِّوار بالمِعْصَم، وظنت قريش الظنون؛ لعلمهم بسوء صنيعهم السابق، وحسبوا أنه سيدخل مكة دخول الجبابرة والطغاة مزهوا منتقما، لكنه ﷺ فاجأهم بأن جاء متواضعا متخشعا لربه، غير مزهو بنصر، ولا شامت بأعدائه.

وعندما رأى قريشا وهم يتوقعون الإجهاز عليهم، ورأى جموع الصحابة الكرام ﷺ وهم ينتظرون أدنى إشارة منه ﷺ حتى يبيدوا خضراء قريش قال النبي ﷺ مخاطبا قريشا: «**ما تظنون أني فاعل بكم**»؟

قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم.

قال: «**فاهبوا فأنتم الطلقاء**»[5].

(1) محارب خصفة بن قيس بن علان من بطون عدنان.
(2) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع، ح3905. صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب توكله ﷺ على الله تعالى وعصمة الله له ﷺ من الناس، ح843. المسند لحمد بن حنبل، 193/23. واللفظ للإمام أحمد.
(3) السنن الكبرى للبيهقي، 199/9.
(4) السيرة النبوية وبناء الدولة من التكوين إلى التمكين، خالد عبد المعطي خليف، دار الكلمة، مصر، ط2: 1436هـ/2015م، ص595.
(5) السنن الكبرى للبيهقي، 199/9.

وقال لهم ما قاله يوسف ﷺ لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[يوسف: 92].

إن هذا يدل على "عظيم شفقة النبي صلى الله عليه وسلم بأمته، وأنه لم ينتقم لنفسه منهم، بل غلب عليه جانب الرحمة"[1].

إنها معاملة فريدة في التاريخ.. وهذه من أعظم مواقف الرحمة في السيرة النبوية، وخاصة إذا وضعت التاريخ المظلم لقريش مع رسول الله ﷺ؛ فقد فتح رسول الله مكة ودان له كلُّ من فيها، وأصبحوا ملك يده ﷺ، وله حق التصرف فيهم كما يشاء، فماذا فعل ﷺ؟

منّ عليهم بالعفو الشامل، ولم يمسهم بأدنى سوء، بل إنه أكرمهم وأنزلهم منزلةً عاليةً؛ مما يدل على سمو أخلاقه ورحمته ﷺ.

يقول المستشرق الأمريكي (واشنجتون إيرفنج) "Washington Irving" في كتابه حياة محمد: "كانت تصرفات الرسول –ﷺ– في أعقاب فتح مكة تدل على أنه نبي مرسل لا على أنه قائد مظفرا فقد أبدى رحمة وشفقة على مواطنيه برغم أنه أصبح في مركز قوي، ولكنه توج نجاحه وانتصاره بالرحمة والعفو"اهـ.

ويقول الأديب الانجليزي الشهير (جورج برنارد شو) "George Bernard Shaw" في الجزء الأول من كتابه عظمة الإسلام: "كان محمد هو روح الرحمة وقد ظل تأثيره باقيا خالدا على مر الزمان، لم ينسه أحدا من الناس الذي عاشوا حوله، ولم ينسه الذي عاشوا بعده"اهـ.

إن رحمة سيدنا رسول الله ﷺ بالناس جميعا وحتى بالحيوانات لم تكن رحمةً مُتكلَّفةً، تحدث في بعض المواقف من قبيل التجمل أو الاصطناع، إنما كانت رحمة طبيعية تلقائية مُشاهَدةً في كل الأحوال، برغم اختلاف الظروف، وتعدّد المناسبات.

وعليه؛ فإن مظاهر رحمته ﷺ بالخلق التي تأصّلت في مواقفه وتصرفاته ﷺ تقرر حقيقة الذات المحمدية، وكيف أن صفة الرحمة صفة شخصيّة قد تأصلت في تصرفاته ومواقفه، مما يعني بما لا يدع مجالا للشك أن الفظاظة قد انعدمت في قلب رسول الله ﷺ، فلم يثبت لدينا في كتب السيرة النبوية أي موقف يدل على غلظة وفظاظة بادرة من رسول الله ﷺ لا من قريب أو بعيد..

بل كان يقابل ﷺ الكثير من المخطئين في حقه بتبسم.. وتنطلق مع بسماته أطياف نور آسر.. وما هي إلا لحظات، حتى ينقلب المخطئ أو المغيظ المتهجم محبا يكاد من فرط الوجد والحياء يذوب..

إنها الرحمة المحمدية المتجردة تماما عن أي هوى، والتي ليس وراءها نفع دنيوي، ولا مصلحة شخصية.. [2].

لقد كان حبيبنا رسول الله ﷺ أنموذجا قرآنيا رائعا لأخلاق السماء، وكانت الأمثلة الواقعة في حياته الشريفة ﷺ أعظم مثل وقدوة على أخلاقه العظيمة ورحمته بخلق الله جميعا.

وبالجملة فإن فقد "كانت الرحمة في هذه الأمّة أكثر من غيرها من الأمم، وظهر على يد النبي ﷺ ما لم يظهر على يد غيره"[3].

مسك الختام: (في التأسي برحمته ﷺ بالمخطئين).

هذه هي رسالة الإسلام في حقيقتها، وهذا هو سيدنا رسول الله ﷺ في رحمته وأخلاقه.. إن الكثير من الناس لا يفهمون الإسلام اليوم حقّ الفهم..

إنهم قصروه على بعض العبادات والحدود.. ولكنه ليس هذا فقط..

وليس الذي يدخل الجنة من أدى العبادات وأقام الحدود، ثم هو ينطلق في الأرض مفسدًا لها، ظالما لأهلها، قاسيًا على من يعيشون فيها..

إن أهل الجنة هم الرحماء أصحاب القلوب الرقيقة والمشاعر المرهفة، أمَّا أهلُ النار فهم الغلاظ الجفاة الذي تحجَّرت قلوبُهم، واستكبرت نفوسهم، فلم يرحموا خلق الله، ولم يرأفوا بحالهم..

(1) شمائل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، أحمد بن عبد الفتاح زواوى، دار القمة – الإسكندرية، 408/1.
(2) الرحمة في حياة الرسول ﷺ، راغب السرجاني، منشورات رابطة العالم الإسلامي، ص109 وما بعدها.
(3) منتهى السؤل على وسائل الوصول إلى شمائل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، عبد الله بن سعيد بن محمد عبادي اللحجي الحضرميّ الشحاري، ثم المراوعي، ثم المكي، دار المنهاج – جدة، ط3: 1426 هـ / 2005 م، 149/1.

إن البون بين الطائفتين شاسع، والمسافة هائلة، كما بين السماء والأرض، أو أبعد..

إنه الفارق بين من فهم الإسلام ومن لم يفهمه..

إن السبب الذي جمع الناس حول سيدنا رسول الله ﷺ ليس أبدا قوةَ السلطان، ولا حد السيف.. إنما الذي جمعهم حقيقة هو الرحمة الإلهية التي ألانت قلب خير البرية ﷺ، لذلك جاء على هذه الصورةِ الرحيمة من الكمال البشري والسمو الخلقي.. مصداقا لقوله تبارك وتعالى في مخاطبا نبيه الكريم ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: 159).

ولقد أوتي المسلمون اليوم من باب تنكبهم عن التأسي بسيدنا رسول الله ﷺ، ولم يصبهم ما أصابهم إلا بسبب الإخلال بجانب الاقتداء برسول الله ﷺ، والأخذ بهديه، واتباع سنته، ومحبته وطاعته.

لقد اكتفى بعضهم بقراءة السيرة النبوية في المناسبات دون الوقوف مع دروسها وعبرها للعمل بمقتضاها، والاهتداء بها، واكتفى آخرون بحصر الإسلام في زاوية ضيقة وفي بعض العبادات والحدود..

وكل هذا راجع إما لجهلهم بأن الاتباع والتأسي والاقتداء به في أخلاقه وآدابه وعباداته ومعاملته وحسن معاشرته من لوازم محبته، وإما لعدم إدراكهم مواضع الاقتداء من سيرته ﷺ.

يقول الشيخ محمد الغزالي –رحمه الله–: "لقيت متعصبين كثيرين، ودرست عن كثب أحوالهم النفسية والفكرية، فوجدت آفتين تفتكان بهم: الأولى: العجز العلمي، أو قلة المعرفة! هؤلاء يحفظون نصا وينسون آخر، أو يفهمون دلالة للكلام هنا ويجهلون أخرى، وهم يحسبون ما أدركوه الدينَ كلَّه. ولو أن هؤلاء اكتفوا بمنزلة المتعلم التابع ما عابهم ذلك كثيرا، فليس كلُّ مسلم مطالبا بمعرفة جميع الأقوال الواردة والدلالات المحتملة. المصيبة أن يشتغلوا مفتين أو موجهين وهم بهذا المستوى الهابط!..

والآفة الثانية في التعصب المذهبي: سوء النية، ووجود أمراض نفسية دفينة وراء السلوك الإنساني المعوج، ويُغلب أن تكون آفات الظهور والاستعلاء أو رذائل القسوة والتسلط. كنت في مجلس قرآن ختم القارئ فيه التلاوة بقوله صدق الله العظيم. فإذا جالس ينتفض كأنما لسعته عقرب يقول: هذه بدعة... قلت له: لا أبحث معك أنها بدعة أو سنَّة، وإنما أسألك: ما هذا الفزع؟ لكأنما سقط على رأسك حجر، الأمر ما يعالج بهذه العاصفة. اجلس...

هذا الصنف من الناس لم يهذب نفسه بالأخلاق التي بعث صاحب الرسالة ليتمم مكارمها. إن صور العبادة عنده غطاء لقلب غليظ، وغرائز فجة. وهو يجد متعة في قضايا الخلاف ليثور ويفور، وظاهر أمره الغضب للدين، وهو في الحقيقة ينفس عن طبيعة معتلة، وتربية ناقصة أو مفقودة"[1].

إن الرحمة في أخف تكاليفها، وفي أيسر صورها تكنس من طريق المجهول كل الكوارث المخبوءة، وتغسل عن الإنسان كلَّ أوزاره، وتضع عنه كل أثقاله..

فما أحوجنا إلى الحياة في ظلال الرحمة ونَدَاها، والأُنس في رحابها وشَذَاها، وما أجمل أن نعيش متوادِّين متراحمين، متمسكين بديننا وعقيدتنا، متوجهين إلى الله في طاعة ورجاء، وثقة واستسلام؛ ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: 132].

(1) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، محمد الغزالي، دار الشروق، القاهرة-بيروت، ص74-75.